هاويـــة المخدرات

-٢-

اذا كانت الحضارات يحكمها مبـدأ المدّ والجـزر الذي يحكم البحـار والمحيطات، فلبنـان في عقد الخمسينات والستينات ومنتصف السبعينات من القرن المنصرم كان فـي مرحلة مدّ حضاري نهضوي كاد يجعل منه دولةً مـن دول العالم الأول.
كانت حريـة التفكير والتعبير والنشر قد بلغت سدرة منتهاها حتى غدا لبنان الملاذ الأكثـر أمنا وسلاماً وجهوزية لكل أصحاب الفكر في العالم العربي. كذلك كان لبنان ملاذاً آمناً لرؤوس الأموال التي حولها الذهب الأسود الى ذهب أصفر. والتي هُرّبت مـن الأنظمة الديكتاتورية العسكريـة فغدا لبنان واحة الفكر النهضوي الذي ينهد الى العلمانية والعقلانية وبنـاء المجتمع المدني الذي يحتـرم حقوق الإنسان ويساوي بين الرجـل والمرأة من جهة وواحة الإستثمار الإقتصادي والمالي من الجهة الأخرى.

فـي هـذه الأجـواء كانت زراعـة الحشيشة والأفيـون مزدهرة في لبنان حيث تقول الإحصائيـات أن حوالي سبعين ألف دونم كانت تـزرع بالحشيشة والأفيـون وتـدر الملايين مـن العملـة الصعبـة. ولكن اللافت للنظر آنذاك وإستناداً الى الإحصائيات الرسمية أيضاً أن نسبة المدمنين علـى المخدرات لم تكن تتجاوز الإثنين في المئة.
كيف نفسر ظاهـرة أناس يزرعون الحشيش والأفيـون وأناس يسوقونه الـى الخارج وتأبـى نفـوس الجميع مـن تعاطيه أو الإدمـان عليه. تفسير هذه الظاهرة برأينا أن المجتمع اللبناني في تلك المرحلة الذهبية كان مجتمعاً متماسكاً متضامناً يملك رؤيـة نهضويـة حضارية تؤجج نـار المروءة بين أضلعه. كانت الأسرة خلية إجتماعية لها سلّـم قيمها وأفرادها يتفاعلـون مع بعضهم إيجابياً ويتحركون كفريـق عمـل وحيـاة متماسكين متضامنين. وكانت وسائـل الإعلام المكتوبـة والمرئية تحمكها رؤية لبنان بلـد تفاعـل الحضارات واللغـات والأتنيات والأديـان وكذلك رؤوس الأمـوال.
كان الجميع يؤمنـون ويناضلـون من أجل جعل لبنان بورصة وبنك وجامعة ومنبر ومستشفى وفنـدق وترجمان العـالم العربي. فـي ظل هذا الواقع النهضوي إجتماعياً وفكريـاً وإقتصادياً أنتجنا الكثيـر من المخدرات كسلعة للتسويق تـدر العملة الصعبة ولكننا لم نستهلكها ولم نبلل أرجلنا حتى بمياهها الآسنة.

أما اليـوم وإذا عدنـا الى التقرير الأميركي الذي نشر عـن مكافحة المخـدرات لسنة ٢٠٠٩ لوجـدنا أن لبنـان لم يعـد بلداً ينتج المخدرات خصوصاً وأن جهـاز مكتب مكافحة المخدرات قد أتلف أكثر هذه المزروعات الشيطانية بهمة لا تعرف التعب أو المهادنة. ولكن نسبة إستهلاك المخـدرات زادت فـي لبنـان حتى بلغت بحدود ٢٧% وكذلك تحولت من حشيشة الى مخدرات كيميائية روجت في الأسواق بأسعار متدنية سمحت حتـى للمراهقيـن بالوصول إليها. بـل إذا كنا منطقيين لقلنـا أنه كانت هناك شبكات تتعمد تسويـق هـذه المـواد في المدارس والجامعات وفـي صفوف الطبقات الفقيـرة بغيـة تحطيم سلّـم القيـم لتلك الطبقـات التي رأسمالها الحقيقي هـو أخلاقها ومروءتها وذلك بغيـة ولادة أجيال بكاملها لا تملك رؤية مستقبلية لحياتها ولا أهداف تسعى للوصول إليها وإستنهاضها لما هـو أفضـل. فتعيش في بؤرة عبثية عدمية في إطـار إجتماعي مفكك يسمح لها بإستباحـة المحرمات وإرتكاب الشذوذات والوقوف موقف عدوانـي مـن التقاليـد والعادات والثقافات. وربما يكون الأمر بمثابة مؤامرة علـى الإنسان فـي لبنـان لكي يفقد شخصيته الحضارية وقيمه المتجذرة في مجتمع عمـره آلاف السنوات. إنها مؤامـرة لضرب مبـدأ الإنتماء سواء إنتماء الإنسان الى الأرض أو إنتمـاء الإنسان الـى المجتمع أو إنتماء الإنسان الى حضارة لها بصمتها الخاصة بها رغم إنفتاحها علـى كل الحضارات.

كان الهدف وراء ترويج المخدرات الرخيصة مترافقـة مع ترويـج الأفـلام الجنسية الخلاعية والشاذة وإيهـام الشبان والشابات بأن المخدر ينشط الطاقة الجنسية ويزاوج بيـن لذتيـن، لـذة الرعشة الجنسية ولـذة الرعشة الدماغيـة. وهذا منتهـى السعادة والغبطـة. ومن مصائبنا في هذا الشرق الجاهـل أن الناس تفتقر الى المعرفة العلمية فتنتشر الإشاعات والأوهـام والخرافات وتصبح أقـوى مـن الحقائق البرهانية. نعود لنسأل السؤال الكبير لماذا لبنـان ما قبل الحرب الأهلية كان محصناً ضد المخدرات رغم أنه كان بلداً منتجاً للمخدرات. ولماذا لبنـان اليوم بلداً تجتاحه المخدرات رغم أنه لم يعـد منتجـاً لها. والجواب برأينا أن لبنـان الأمس كانت تحكمه الفلسفة الغائية التي تعتبـر الإنسان غايـة هذا الوجود وتعرفه بأنه كائن عاقل حرّ مسؤول إجتماعي

بالفطـرة. عليه أن يحصن إنسانيتــه بعقلانيتــه ويحصن عقلانيتــه بحريته المسؤولة والتي تتجسد على أرض المجتمع تفاعلاً إيجابياً بناء مع الآخرين.

أما اليـوم فلبنــان تحكمــه الفلسفــة العبثيــة التــي تجعـل منالإنسان كائناً مستهلكاً (غايتــه اللــذة السريعــة) غارق فــي عدميته وفي اللامعقول من الخرافات والأوهام والطقـوس التي تفتقر الى جوهر الحقيقة ولو في حدها الأدنى. والأدهى من ذلك كله أن هذه الخرافات تتجلبب في بعض الأحيان بجلابيب الفكر الديني وذلك بعدم التمييز بيــن جواهــر الأديــان وبيــن الثقافات الدينيــة الشعبية التــي ولــد أكثرها في عصر الإنحطاط الذي برأينا لم نخرج منه للأسف بعد. أخيراً نقول أن مشكلة الإدمان على المخدرات ليست مشكلة أمنيــة فقط كما ينظــر إليها فــي لبنــان حالياً ولكنها مشكلة إجتماعية إقتصادية ثقافيــة ومعالجتها يجب أن لا تقتصر علــى جهاز الأمن بل يجب أن توضع خطة شمولية تتشارك فيها وزارة الثقافة ووزارة الشباب.

بإختصار يجب معالجــة المشكلة علــى أساس أنها مشكلة إستراتيجية وليست مشكلـة أمنيــة.

كمال يوسف سري الدين